الأمر عزيمة وجد، وعصمهم الله من الزلل وألزمهم كلمة التقوىٰ فتمسكوا بها بعد أن امتحن الله قلوبهم لها، وهو ما أشار الله إليه في آيتنا هذه: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧، ٨].

وهكذا عاد الأمر إلىٰ موضوع الالتزام والطاعة التي بدأت به السورة في قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١] أي: لا تتجاوزوا حدودكم، والتزموا الأدب مع نبيكم ﷺ ولذلك قال هنا مشيراً إلىٰ ذلك: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾

* * *

النعمة الكبرى

وليس المقصود بالأمر بالعلم في قوله: ﴿وَاعْلَمُوا﴾ هو ظاهر الخبر لأن ذلك معلوم بالمشاهدة والعيان ولكن المقصود أن يعلموا حقيقة هذا الأمر وتبعاته، وأن وجوده بينهم يقتضي طاعته واتباعه والتسليم لأمره وعدم الاعتراض عليه فهو رسول الله عز وجل الذي يأتيه الوحي من فوق سبع سموات، والذي لاينطق عن الهوىٰ والذي لا يخلو فعله عن الحكمة وإن خفي عليهم وجهها. فيجب عليهم أن يتهموا أنفسهم وينظروا إلىٰ قصور رأيهم وألا يحاولوا الضغط عليه لفرض رأيهم أو الانتصار لوجهة نظرهم. وبعبارة أخرىٰ ينبغي أن يتلقوا عنه وألا يقترحوا عليه أو يتقدموا بين يديه.

ولذلك قدم الخبر (فيكم) علىٰ المبتدأ (اسم أن) فقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ ولم يقل: (واعلموا أن رسول الله فيكم) وذلك للإشارة إلىٰ اختصاصهم هم

بتلك النعمة الكبرىٰ وهي كون الرسول ﷺ فيهم، أي فيهم هم لا في غيرهم مما يستلزم منهم أن يطيعوه ويوقروه، فعلمهم بوجوده بينهم يترتب عليه طاعتهم له. فالعلم يقتضي العمل كما قال عز وجل: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠] فبعد أن بين لهم حقيقة الحياة الدنيا ومآل الأمور في الآخرة قال في الآية بعدها: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١] ففي الآية (٢٠) قال: ﴿اعْلَمُوا﴾ وفي الآية (٢١) قال: ﴿سَابِقُوا﴾ فهو علم يعقبه عمل وسعي.

فالمقصود أن يعلموا أن بين أظهرهم مَن يأخذ بأيديهم إلىٰ سبيل الهداية والرشاد فإن تركوا الاسترشاد به فإن تصرفهم هذا بمثابة عدم العلم بوجوده بينهم، أو كأنهم حسبوه بين أظهر قوم آخرين وذلك بسبب مخالفتهم لأمره ولكن الأمر بالطاعة لم يأت صريحًا فلم يقل: (أطيعوه) بل يفهم ذلك ضمنًا من الآية واكتفىٰ بالقول أنه «فيهم» وكأنه يقول لهم كيف خفي عليكم ذلك فخالفتم أمره وعصيتموه وكان عليكم أن تطيعوه؟

فبدلاً من أن تقول لجماعة تركوا الاسترشاد بشيخهم المجرب المشفق عليهم وإمامهم الحريص عليهم والناصح لهم فهم يتعثرون ويتخبطون فبدلاً من أن تقول لهم: (أطيعوا شيخكم أو اتبعوا إمامكم) تقول لهم: (أليس الشيخ بينكم؟) فكأن الرجوع إليه والاسترشاد برأيه والعمل بقوله وأمرِه أوضحُ من أن يؤمر به أو يطلب منهم أن يفعلوه فمعهم طوق النجاة والسراج المنير فلِمَ الضياع والتيه؟

هو عصمة لهم من الكفر والفسوق والعصيان بشرط أن يطيعوه ولكنه لم يقل لهم: (أطيعوه) فهو أمر ظاهر ولا يخفىٰ على أحد ولا يحتاج عاقل إلىٰ أن يلفت نظره إليه

ولذلك قرن اسمه بلفظ الجلالة فقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾[الحجرات: ٧] وذلك إظهاراً لرفعة شأنه وللتنويه بوجوب طاعته واتباع أمره وهديه.

وهذا التقديم والتأخير في قوله عز وجل: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ يشبه قول موسى عليه السلام لبني إسرائيل كما في قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠] فلم يقل موسى عليه السلام: (إذ جعل أنبياء فيكم)ولكنه قدم (فيكم) على كلمة (أنبياء) كما قدمت (فيكم) على (رسول الله) في آية الحجرات أي: أن هذا الجعل فيكم لا في غيركم، فهذه نعمة عليكم أن تقدروها حق قدرها وهي جعل الأنبياء في زمانكم وشهودكم لهذه المنة الكبرى التي اختصكم بها دون غيركم؛ لأن بني إسرائيل كانت منهم المشاقة وكثرة المخالفة لأنبيائهم.

فبنو إسرائيل كان منهم الجدل العقيم بدلاً من الطاعة والتسليم فأكثروا من الجدل وتركوا العمل فلما أمرهم موسى عليه السلام بذبح البقرة تلكئوا وتباطئوا وموسى عليه السلام يصرخ فيهم: ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ [البقرة:٦٨]. ولما أمرهم بدخول الأرض المقدسة كان منهم التقاعس والتخاذل فقد عرفوا بالمراء وكثرة المجادلة والمسألة ولذلك حذرنا الله من ذلك كما في قوله عز وجل: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨].

كما تلاحظ أن موسى عليه السلام وهو يذكر قومه بنعم الله عليهم بدأها بنعمة جعْل النبوة فيهم وقدمها على ما سواها من النعم الدنيوية كنعمة الملك والإيتاء من كل شيء فقال: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠] فوجود النبي بين قومه رحمة لهم من العذاب والهلاك: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] فقد رفع الله العذاب عن كفار مكة مع استحقاقهم له بسبب وجود النبي ﷺ بين

أظهرهم كما أن وجود النبي ﷺ بين المؤمنين عصمة لهم من الارتداد إلى الكفر قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ [آل عمران: ١٠٠-١٠١].

ولو أن الرسول ﷺ أُرسل في غير زمانكم أو إلى قوم غيركم لكان لكم العذر أن تروا رأيكم أو أن تتبعوا أهواءكم ولكن كيف وقد جاءكم رسول من أنفسكم يخاطبكم بلسانكم ومعه كتاب فيه ذكركم؟ فلا عذر ولا حجة لكم والرسول ﷺ بينكم.

* * *

الطاعة في المنشط والمكره

فلا تجعلوا وجوده بينكم كعدمه وإياكم أن تفعلوا شيئًا إلا بعد أخذ رأيه وإياكم أن تردوا قوله أو تعترضوا على حكمه، وإياكم أن تعكسوا الأمور أو تقلبوا الأوضاع فتجعلوا الرئيس مرءوسًا والتابع متبوعًا والآمر مأمورًا، فتحملوه على النزول على رأيكم فإن ذلك يؤدي إلى وقوع العنت بكم ولذا قال عز وجل: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات: ٧] وهو تعليل لعدم طاعته لهم، فالخير كل الخير في أن يطيعوه لا في أن يطيعهم هو أو يمشي وفق رغباتهم فالقضية إذن تتعلق بالطاعة كما في قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

فالمحكّ الحقيقي للإيمان هو في الطاعة والتسليم التام دون شك أو ارتياب ومهما كانت الظروف والملابسات ولذلك اشترط الرسول ﷺ على الأنصار في بيعة العقبة الثانية الطاعةَ في كل الأحوال فقال في الحديث المتفق عليه والذي رواه عبادة بن الصامت رضي الله عنه: «**الطاعة في المنشط والمكره وفي العسر واليسر**» وليس فقط

فيما يوافق هوىٰ النفس ولذلك قال الله عز وجل في أواخر هذه السورة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

فصلح الحديبية وما حدث فيه كان امتحانًا قاسيًا لقوة إيمان الصحابة ولمدىٰ تقوىٰ قلوبهم ولكن الله يعلم حرج الموقف الذي كانوا فيه ولذلك تولىٰ هو تثبيت قلوبهم وإنزال السكينة عليهم حتىٰ يجتازوا هذه المحنة بسلام ويخرجوا منها والتقوىٰ تعمر قلوبهم والإيمان يتألق علىٰ وجوههم، قال عز وجل مشيرًا إلىٰ ذلك: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦] وأشار إلىٰ ذلك في سورتنا هذه بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [الحجرات: ٣].

فوجود النبي ﷺ بينهم نعمة كبرىٰ ومنة عظمىٰ كما قال عز وجل: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

ولذلك بعد أن ذكَّرهم اللَّه عزَّ وجلَّ بأن وجود الرسول ﷺ بينهم نعمة كبرىٰ وتكلم عمَّا أصابهم من هزيمة في غزوة أحد فقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، فقد تعجب الصحابة: كيف يُهزمون ويقتل منهم سبعون وهم مسلمون وفيهم رسول اللَّه ﷺ، فذكَّرهم اللَّه عزَّ وجلَّ بانتصارهم في بدر وأنهم أصابوا من الكفار ضعفي ما أصابوا منهم في أحد فقد قتلوا من الكفار سبعين وأسروا منهم سبعين وذلك بسبب طاعتهم للَّه ولرسوله ﷺ ولكن لمَّا خالفوا أمره ﷺ في أُحد وترك الرماة أماكنهم التي حددها لهم رسول اللَّه ﷺ حاقت بهم الهزيمة، فالأمر إذن يتعلق بالطاعة وعدم المخالفة.

فلْيتأدبوا معه ولْيعرفوا له قدره ولينقادوا لأمره فهو أعلم بمصالحهم وأرحم بهم من أنفسهم كما قال عز وجل: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الاحزاب: ٦] وقوله أيضًا: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. وإياكم أن تعكسوا الأمور فتكونوا كمن قال الله فيهم من المنافقين: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢].

فقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي: فلا تقضوا أمرًا إلا بعد الرجوع إليه ولا تستقلوا بأمر دونه، ولا بأس من أن تعرضوا عليه آراءكم ولكن اجعلوا الرأي الأخير له. فقد عرف هذا الأدب ملأ ملكة سبأ فقد قالوا لها حينما شاورتهم بقولها: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [النمل: ٣٢-٣٣] فبعد إبداء رأيهم قالوا: ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٣] وهي امرأة تخطئ وتصيب فما بالكم برسول الله ﷺ المؤيد من السماء أليس من باب أولى أن تفوضوا إليه أمركم كما في قوله عز وجل: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]

فعلامة الإيمان الحق كما تشير هذه الآية هو التسليم التام بما يقضي به الرسول ﷺ وعلامة ذلك ألا يجدوا حرجًا في صدورهم سواء حكمَ لهم أو حكم عليهم بل هو التسليم التام والرضا الكامل وهذا شأن المؤمنين كما في قوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا﴾ [الاحزاب: ٣٦].

❊ ❊ ❊

علامة الحب الاتباع

وانظر أيضًا إلى قوله عز وجل في سورة النور: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١]. هذه بخلاف المنافقين الذين جاء ذكرهم قبل هذه الآية السابقة قال عز وجل: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [النور: ٤٨-٥٠].

وعلامة الرضا بحكم الله عز وجل وبرسوله ﷺ هو العمل بذلك دون أدنى حرج أو تردد مما يدل على أن النفس قد تخلصت من حظوظها وأهوائها وخلصت لله عز وجل كأنها لا حظَّ لها في نفسها أو نصيب أي: تجردت للحق دون أن تنظر إلى حظ نفسها. وهذا من علامة الحب الصادق فالمحب لمن أحب مطيع.

فإذا ما حكم الرسول ﷺ بخلاف رأيك فإياك أن تعترض أو ترد الأمر عليه بل اتهم نفسك، فالجندي في المعركة إذا جاءه الأمر من قائده فما عليه إلا التسليم والتنفيذ ولا يحق له أن يناقش قائده أو يراجعه فالموقف لا يحتمل ذلك هذا بالإضافة أن القائد يرى من الأمور ما لا يراه الجنود فهو بحكم خبرته وتقديره للأمور فإن رأيه هو الأصوب والأسلم ولو اعترض عليه الجنود وطلبوا الحكمة فيما يأمرهم به لتحوَّل الأمر إلى فوضى ولأصبح القائد مساويًا لجنوده ولانْفرط عقد الجماعة وذهب ريحهم وضاعت هيبتهم.

فما عليهم إلا التسليم وهم على ثقة ويقين أن قرار القائد هو القرار الحكيم وأن رأيه هو الرأي السديد. فليس من مقتضيات الطاعة أنه إذا جاء القائد بأمر يخالف رأي جنوده أن يغضبوا ويعترضوا ويظهروا التمرد والعصيان وهم أمام العدو في ميدان القتال وإلا فلن تقوم لهم قائمة أو ينصلح لهم حال أو يرشد لهم أمر من الأمور ولذلك ورد في الحديث المتفق عليه: «**إنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم**

على أنبيائهم فما أمرتكم من شيء فأتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه». ولذلك قال عز وجل: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

والعنت: معناه المشقة وأصله: انكسار العظم بعد الجبر فاستعير لكل ضرر ومشقة. والعنت في القرآن لا يأتي إلا من المشركين والمنافقين الذين لا يريدون الخير للمؤمنين كما في قوله عز وجل في شأن المنافقين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨].

أما الله عز وجل ورسوله فلا يريدان العنت للمؤمنين بل ما فيه خير لهم ونفع ويسر يقول عز وجل: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ﴾ [البقرة: ١٢٢] ولكنه لم يفعل رحمة بكم، وانظر إلي قوله عز وجل في حق الرسول ﷺ: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] أي: يشق عليه كل ما فيه عنت لكم ومشقة ولذلك ينبغي أن تفوضوا الأمر إليه وأنتم واثقون أن اختياره لكم هو أفضل من اختياركم لأنفسكم.

ولعلك تلاحظ أن قوله عز وجل: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات: ٧] جاء في صيغة المضارع: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ ولم يقل: (لو أطاعكم) وذلك تنبيهًا لجميع الأمة ـ الذين صاحبوه، والذين جاءوا من بعده إلى يوم الدين ـ أن ما قاله الرسول ﷺ وحكم به هو الخير كل الخير ولا خيرَ خيرٌ منه، فما عليهم جميعًا إلا التسليم له تسليمًا كاملاً لأنه يتصرف عن علم وحكمة فهو لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

ولذلك قال عزَّ وجلَّ: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ﴾ ولم يقل (و يطيعكم في كثير من الأمور) لأنه ﷺ كان في بعض الأمور والمواقف يستشير أصحابه ويأخذ برأيهم فهي مسائل يطلب فيها الاجتهاد، أما ما يتعلق بالمصالح العليا لهذا الدين فإنه لا يترك لتقدير المجتهدين أو لعقول البشر القاصرين بل هو وحي يوحيه رب العالمين إلى رسوله الكريم ﷺ كما حدث في صلح الحديبية في العام السادس من الهجرة النبوية.

الله لطيف بعباده

وأما قوله عز وجل: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾[الحجرات: ٧]، و(لكن) تفيد الاستدراك أي: أن ما بعدها يخالف ما قبلها، أي: أن الله رأف بهم ولم يرض لهم العنت ولا الكفر والفسوق والعصيان بل أقال عثرتهم وغسل حوبتهم وأخذ بيدهم وأمدهم بلطفه ومنِّه وكرمه وعفا عنهم وتجاوز عن زلتهم وعصمهم من الزلل ولم يرض لهم إلا الإيمان الكامل فأنزل السكينة في قلوبهم ليثبتهم على الحق وألزمهم كلمة التقوى حتي يفيئوا إلى الرشد وينقشع ما اعترى قلوبهم من الشك وحتى لا يطول بهم هذا الحال فيستمروا على العصيان.

فالله لا يريدهم أن يهبطوا عن هذا المستوى الرفيع الذي بلغوه ففي حديث البخاري في «صحيحه» أن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: (قال لنا رسول الله ﷺ ونحن في «الحديبية»: «**أنتم خير أهل الأرض**». ولذلك حبب الله إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان وجعلهم من الراشدين فضلاً منه ونعمة، ومدحهم في خواتيم سورة «الفتح»، فعادوا إلى المدينة يرفرف عليهم الإيمان ويغمرهم الشعور بالرضا وراحة البال.

وهكذا لم يتخل الله عنهم فقد علم الخير الذي في قلوبهم فلطف بهم وثبتهم علي الإيمان كما في قوله عز وجل: ﴿**فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾ [الفتح: ١٨] كما أنه عز وجل علم الضغوط التي تعرضوا لها من كفار مكة والاستفزاز والمعاناة التي تحملوها والظروف البيئية التي كانوا فيها وهم على إحرامهم، وقد طال بهم حتى شعثوا وقملوا، وما حدث لهم حين رفض سهيل بن عمرو أن يترك ولده أبا جندل أن ينضم لمعسكر المسلمين ورفض أيضًا كتابة «بسم الله الرحمن الرحيم» وكتابة «محمد رسول الله» في الوثيقة وتعنته في بعض الشروط

الخاصة بـ «صلح الحديبية» ومما زاد الطين بلة صدهم عن البيت وهم منه «قاب قوسين أو أدنى» مع أنهم جاءوا معظمين له.

ولذلك كله عفا الله عنهم وغفر لهم ما كان منهم فهي ظروف فوق قدرة البشر أن يحتملوها ولذلك عذرهم الله وثبت قلوبهم وطيب نفوسهم وردهم إلى المدينة سالمين متآخين متحابين وأنزل في شأنهم قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] وقال أيضًا: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

فهذه أوسمة ربانية تتألق على جبين الزمان وتبقى ما بقيت الأرض والسموات فقد ربط الله على قلوبهم كما حدث مع أم «موسى» في موقفها العصيب: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠].

وكما حدث مع أهل الكهف فهم فتية آمنوا بربهم واحتاجوا إلى التثبيت: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [الكهف: ١٤].

* * *

وهل الدين إلا الحب؟

وتحبيب الله الإيمان إليهم إذ كانوا مشرفين على العنت والهلاك فأنقذهم الله من ذلك وعالج الأمر وأصلحه بما أنعم عليهم من تحبيب الإيمان وتكريه الكفر والفسوق والعصيان إليهم، وتلك هي عناية الله بهم وهذا دأبه معهم كما قال عز وجل: ﴿وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وتحبيب الإيمان إليهم أي: جعله محبوبًا عندهم حتى أصبح أغلى لديهم من كل

شيء وبحيث لا يقع منهم إلا ما يوافقه، فقد حبب الله إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وهداهم إليه وشرح صدورهم له فأحبوه حتى ملك عليهم شغاف قلوبهم وأصبحت تهفو إليه نفوسهم وتهوي إليهم أفئدتهم .

كما أنه لم يكتف بالتحبيب فقط مع كونه نعمة عظيمة ولكنه أيضًا زينه في قلوبهم فإذا به يزداد كل يوم جمالاً وحسنًا حيث تنجذب إليه القلوب وتتعلق به مؤثرةً إياه على كل ما عداه فلا ترضى بغيره بديلاً بعد أن ذاقوا حلاوته ونعموا بالعيش في رحابه الطاهرة .

وتزيين الإيمان في القلوب نعمة أخرى فضلاً عن نعمة تحبيب الإيمان إلى النفوس فقد يرى الإنسان الشيء حسنًا وهو على خلاف ذلك كما في قوله عز وجل: ﴿**أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا**﴾ [فاطر: ٨]. وكما قال عز وجل: ﴿**فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ**﴾ [الاعراف: ٣٠] وقوله عز وجل: ﴿**وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى**﴾ [فصلت: ١٧] ولذلك ورد في مأثور الدعاء: (اللهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه) .

فمن فضل الله ونعمته أن زين الإيمان في قلوبهم حتى رأوا حسنه فدعاهم ذلك إلى التمسك به، ورغبهم فيه فعضوا عليه بالنواجذ وتشبثوا بأهدابه فقد عشقته قلوبهم وأحبته بعد أن اختاره الله لهم واختارهم له وهل الدين إلا الحب؟ وفي حديث أحمد والطبراني: «**أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله**» وفي حديث أبي داود: «**من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان**» فالإيمان نوع من العشق وليس إدراكًا عقليًّا فحسب .

ولعلك تلاحظ أن الله لم يقل: (ولكن الله فرض عليكم الإيمان وأدخله في قلوبكم) بل قال: ﴿**حَبَّبَ**﴾ وقال: ﴿**وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾. أي: حببه إليكم فأحببتموه وزينه في قلوبكم فأقبلتم عليه وقبلتموه، فالله لا يجبرهم على الإيمان

ولكن يجعلهم يختارونه عن حب واقتناع، فالإيمان فطرة فطر الله عليها الناس، فالله زينه في قلوبهم وحببه إليهم بما أودع في القلوب من محبة الحق وإيثاره وبما نصب على الحق من الشواهد وبما بث في الكون من الدلائل التي تدل على صحة الحق وقبول القلوب والفطر السليمة له.

* * *

تمام النعمة

كما أن الله من فضله ونعمته وكمال رحمته لم يكتف بنعمة التحبيب، والتزيين للإيمان في القلوب ولكنه في المقابل كَرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان حتى أصبحت تلك الأشياء لديهم كريهة يرونها في أقبح صورة بحيث تعافها قلوبهم وتشمئز منها نفوسهم وهكذا اكتملت النعمة والفضل من الله إذ إن حب الإيمان يقتضي كراهية ما هو خلافه.

فتمام نعمة التحبيب وتزيين الإيمان في القلوب أن يصاحبها في نفس الوقت تكريه الكفر والفسوق والعصيان إلى تلك القلوب وإلا فالقلوب تقبل على الطاعات في حين من الأحيان ثم تميل إلى فعل المعاصي في أحيان أخرى.

ولذلك حينما كان يأمر الرسول ﷺ أمته بشيء فإنه كان ينهى عن نقيض ذلك فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أموره قال: «**بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا**» رواه مسلم. وعن أنس رضي الله عنه في الحديث المتفق عليه: (قال ﷺ: «**بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا**»).

ولما بعث النبي ﷺ أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل إلى اليمن قبل حجة الوداع قال لهما: «**يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا وتطاوعا ولا تخالفا**». والحديث

رواه الشيخان. ففي الحديث الأمر بالتيسير والنهي عن التنفير في نفس الوقت، فقد جمع النبي ﷺ في هذه الألفاظ بين الشيء وضده لأن الإنسان قد يفعل التيسير في وقت ويفعل التعسير في وقت آخر، وكذلك يبشر في وقت وينفر في وقت آخر. فلو اقتصر على (يسرا) لصدق ذلك على من يسر مرة أو مرات وعسر في معظم الحالات، ولكن بقوله: (ولا تعسرا) فقد انتفى التعسير في جميع الأحوال ومن جميع الوجوه وهذا هو المطلوب وكذلك يقال في (بشرا ولا تنفرا) وفي (تطاوعا ولا تختلفا) لأنهما قد يتطاوعان في وقت أو موقف ويختلفان في وقت أو موقف آخر.

وكان هذا شأنه ﷺ في كل أموره ففي «صحيح مسلم» عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا: «**اللهم من ولي من أمر أمتي شيئًا فشق عليهم فاشقق عليه ومن ولي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم فارفق به**» فهو لا يكتفي بالشيء حتى يأتي بما يقابله حتى يوفي الأمر المراد حقه من جميع الجهات وفي كل الأحوال فقد يرفق الرجل في بعض الأمور ولكنه يشق على الناس في أمور أخرى وقد يرفق بهم في أوقات ويشق عليهم في غيرها.

فالرسول ﷺ لا يريد للخير أن يكون فلتة عابرة أو نزوة طارئة بل نهجًا ثابتًا وسلوكًا دائمًا لا ينقطع.

* * *

الاستقامة شعار هذا الدين

وإننا لنرى في شهر رمضان كثيراً من الناس يقلعون عن المعاصي ويقبلون على عبادة ربهم فتمتلئ بهم المساجد حتى إذا انقضى الشهر الكريم عادوا إلى ما كانوا عليه من ارتكاب المعاصي والآثام. وقد حذرنا الله من ذلك فقال: ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا**﴾ [النحل: ٩٢]. ووجه الشبه أنه لا يكاد ينتهي

رمضان عند بعض الناس حتى يتكاسلوا في أداء الصلوات ويهجروا بيوت الله وهناك من تنقبض أيديهم عن أفعال البر والإحسان وهناك من يعود إلى الغيبة والنميمة وما حرم الله وكأن شهر رمضان هو الشهر الوحيد الذي نتقرب فيه إلى الله ونتخلص فيه من الرذائل والشهوات ونعصي فيه الشيطان حتى إذا ما ودعنا الشهر الكريم تمكنت فينا الشهوات وسيطرت علينا الأهواء تولى قيادنا الشيطان.

وهكذا لايمر علينا العام ويأتينا رمضان جديد إلا وقد تضاعفت سيئاتنا وتلوثت بالمعاصي صحائفنا ورجعنا إلى قمة الرذائل. وما هكذا يريدنا الله عز وجل، لا يريدنا أن نظل مذبذبين بين فعل المعاصي والطاعات أو نكون واقفين على درجة واحدة كلما صعدنا إليها نزلنا عنها!

فالله يجعلنا نتذوق حلاوة الطاعة في رمضان ولذة المناجاة والقرب من الله حتى نستمر على هذا المنوال - أو قريبًا منه - بعد رمضان، بل وحتى نجعل العام كله رمضان، فمن ذاق عرف ومن عرف غرف. ففي رمضان الكل من حولنا صائم وقائم، والشياطين مصفدة وأبواب الجنة مفتحة. والنفس مهيئة وتأخذ بحظها من الطاعات والأعمال الصالحة ولكن علينا أن نحافظ على هذا المستوى بعد انقضاء الشهر الكريم.

وفي حديث مسلم أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن نصيحة موجزة فقال له: «**قل: آمنت بالله ثم استقم**» أي: آمنت ثم التزم بمقتضى هذا الإيمان بفعل الأعمال الصالحة وأن تتمسك بأمر هذا الدين لا تفرط فيه ولا تحيد عنه قيد أنملة أو تميل عنه طرفة عين بل تمضي في سبيلك لا تلوي على شيء، فالاستقامة شعار هذا الدين ولذلك فنحن لا نسأل ربنا إلا إياها ففي فاتحة الكتاب التي نرددها في كل صلاة نقول في الدعاء: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ [الفاتحة: ٦] ولذلك لما أراد الإمام «مسلم» أن يضع عنوانًا لترجمته لهذا الحديث السابق لم يجد غير هذه العبارة الرائعة التي تلخص وتجمع كل معاني الدين فقال: «باب: جامع أوصاف الإسلام».

والاستقامة بفعل الطاعات وترك المعاصي وما حرم الله ليست بالأمر اليسير ولكن انظر ما ورد في شأنها من الترغيب كما في قول الله عز وجل في جزاء من يؤمن ويستقيم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الاحقاف: ١٣-١٤].

ولذلك حذرنا رسول الله ﷺ من الانتكاس والارتداد والنقصان بعد الكمال والتمام ففي مأثور الدعاء: «**اللهم إني أسألك إيمانًا لا يرتد ونعيمًا لا ينفد**» وأيضًا: «**أسألك الثبات في الأمر والعزيمة في الرشد**» وقوله: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**» وفي دعاء أولي الألباب في سورة آل عمران: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨] وكان ينصح أصحابه بالمواظبة على الطاعة ففي حديث مسلم: «**خير الأعمال أدومها وإن قل**» فقليل دائم خير من كثير منقطع وخير الأعمال ما دووم عليه صاحبه. ولذلك قال لابن عمر - رضي الله عنهما - كما في حديث الشيخين: «**يا عبد الله، لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل**». فالمؤمن يعب من الخير عبًّا ولا يشبع من الخير حتى يكون منتهاه الجنة.

* * *

حلاوة الإيمان

كما أن المؤمن الذي ذاق طعم الإيمان وعرف لذة القرب من الله فإنه لا يستجيب إلى وساوس الشيطان ولا يفعل ما يغضب الله، فهو كالمشغول بالجواهر إذا أغريته بالمظاهر أو لاحت له الزخارف أو عَرَضٌ من الدنيا حاضر فإنه لا يلتفت إلى شيء من ذلك فقد امتلأ قلبه بالحب والقرب من الله فلا تميل نفسه إلى شيء آخر سواه.

فالإنسان يفعل السيئات القبيحة إما لجهله بقبحها و إما لحبه الدافع له إلى ذلك، فالمشتهي للشيء يجد في قلبه حاجة إليه فإذا لم يحصل له ما يريد ويشتهي فإنه يبقى

في ألم يؤذيه بحسب قوة شهوته لهذا الشيء، فإذا استغنى بما يزيل عنه تلك الشهوة أو تلك الحاجة الملحة لم يبق عنده داعٍ يدعوه إلى ذلك فقد توفر له البديل الكامل ولذلك ورد في الحديث: «**إذا أعجبت أحدكم امرأة فليأت امرأته فإن معها مثل ما معها**» رواه مسلم. وفي الدعاء الوارد في حديث الترمذي وأحمد: «**اللهم أغننا بحلالك عن حرامك وأغننا بفضلك عمن سواك**».

ولذلك كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ من أبعد الخلق عن الذنوب والمعاصي وذلك لاستغنائهم بالعلم والإيمان. كما أنك لاتجد أحداً وقع في بدعة إلا لنقص اتباعه للسنة علماً وعملاً. فالبدعة يقع فيها الجُهَّال بالسنة وكذلك أمر المعاصي كالزنا والسرقة وشرب الخمر، فإنما يزني من كان عنده شهوة يريد قضاءها ولكن من قضى شهوته بما هو أحب إليه فإنه لا يلتفت إلى ما دون ذلك، والذي تميل نفسه إلى المعاصي وإلى ما حرم الله كشارب الخمر مثلاً فإنه إنما يشربها لما يراه فيها من حصول اللذة وزوال الهم والغم في ظنه، فإذا كانت اللذة الحاصلة بالصلاة وذكر الله أكمل فإنها تصده عن ذلك، ومن كان عبداً خالصاً لله فإنه يصرف عنه السوء والفحشاء كما فعل بيوسف عليه السلام.

فليست النعمة فقط في تحبيب وتزيين الإيمان ولكن تمامها في تكريه ما سوى ذلك من الكفر والفسوق والعصيان حتى لا تكون حياة المسلم خليطاً من الحسنات والسيئات ويبقى العمر موزعاً بين فعل الخيرات وارتكاب المعاصي والسيئات، فليست العبرة كما بينا من قبل في فعل ما أمر الله به بل المحك الحقيقي في ترك ما نهى الله عنه وقد ذكرنا ذلك بالتفصيل عند تفسير قوله عز وجل: ﴿**أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ**﴾ [الحجرات: ٢] فارجع إليه إن شئت فهو نفيس وفيه شفاء للغليل ولله الحمد والمنة.

فالإيمان وما عداه من الكفر والفسوق والعصيان إنما هما نقيضان لا يجتمعان في قلب واحد إلا إذا كان قلب منافق والله لا يرضى لعباده المؤمنين أن يكون فيهم

خصال المنافقين أو أن يشبهوهم من قريب أو بعيد بل يريد لقلوبهم أن تكون خالصة له وأن تكون مستقرًا للتقوىٰ ومستودعًا للإيمان وأن تبرأ تمامًا وتطهر من صفات أهل النفاق والشقاق حتىٰ يمكنها أن تحمل أمانة هذا الدين وتتحمل تبعاته الجسام.

ولو اجتمع في قلب العبد حب الإيمان وحب الكفر والفسوق والعصيان وتجاور فيه الحق والباطل لأصبح صاحب هذا القلب في صراع دائم. ولكن الله مَنَّ عليهم بصلاح البال والخاطر وطهر قلوبهم من الأكدار والشوائب وأزال عنها هذا التناقض وصبغها بصبغة الإيمان الخالص وجعلهم من الراشدين.

فالإنسان تتجاذبه قوتان، قوة الخير وقوة الشر، و التقوىٰ والفجور أو الإيمان أو الفسوق ويظل مذبذبًا بين هذه وتلك وتارة تغلب عليه قوة الإيمان وتارة أخرىٰ تكون الغلبة لجانب الكفر والفسوق والعصيان ويظل الإنسان حائرًا بين تلك القوىٰ والنزعات والغرائز التي ركبت فيه ولكن الله لا يتركه هكذا حيران في ضياع وصراع لا يهدأ علىٰ حال أو يقر له قرار، بل هداه النجدين وزوده بالعقل وأرسل له الرسل وأنزل من أجله الكتب وبث من حوله دلائل القدرة وخلقه علىٰ الفطرة وحبب إليه الإيمان فإذا وجد منه استعدادًا للخير وصدق التوجه إلىٰ ربه عز وجل أمده بهدايته وأنار بصيرته وحبب إليه الإيمان وزينه في قلبه وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان وهي غير هدايته العامة التي جعلها للناس أجمعين بل هداية خاصة كما قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وانظر إلىٰ قوله أيضًا: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

وقال في الفئة الأخرى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الصف: ٥] وقال أيضًا: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧] وقال عز وجل: ﴿مَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦-٢٧].

وقوله عز وجل ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ في ختام الآية أي: من أطاع الله ورسوله ﷺ وفعل بما يقتضيه الإيمان وترك ما نهى الله عنه من الكفر والفسوق والعصيان فمن فعل ذلك فأولئك هم الراشدون، والراشدون هم الذين أصابوا الحق ولم يميلوا أو يحيدوا عنه بعد إذ عرفوه.

* * *

التناسق بين كلمات السورة

والرشد: استقامة على الحق مع تصلب فيه، من الرشادة وهي: الصخرة، والرشد بذلك يلتقي مع معنى كلمة «الحجرات» التي اشتقت من «الحجارة» التي تقوم بالفصل بين الأشياء والحجز بينها لما فيها من الغلظة والصلابة وهي بذلك تلتقي مع معنى كلمة «العقل» وأيضًا مع كلمة «الصبر» وكلمة «التقوى» كما بينا من قبل، فالإنسان الراشد هو الذي يميز بين الحق والباطل، والضار والنافع ولا يفعل إلا ما يقتضيه العقل السليم فيترك كل قبيح وكل أمر لا يليق، وهو الذي يعرف حدوده ويلتزم بها ولا يتعدى أو يتجاوز أحكام الشرع بل يمتثل أمر الله عز وجل ومن ثم فهو لا يتقدم بين يدي الله ورسوله ﷺ.

أما قوله عز وجل في الآية الثامنة من سورة «الحجرات»: ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٨].

أي: إن تحبيب الله الإيمان وتزيينه في القلوب وتكريه الكفر والفسوق والعصيان للنفوس حتى تنفر منه وكذلك أمر الرشد إنما هو من فضل الله وإنعامه على عباده المؤمنين.

وختم الله هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين من أسمائه الحسنى وهما (عليم حكيم) وفي الآية الأولى من هذه السورة ختمها بقوله: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، فقوله: ﴿حَكِيمٌ﴾ هنا يتماشى مع قوله ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ فالله عز وجل من أسمائه (الرشيد).

والحكيم: الذي يحكم الأشياء ويتقنها ويضعها في مواضعها، وهو من «الحَكَمة» وهي: حديدة اللجام التي توضع في حنك الفرس لتمنعه من الجري أو الذهاب في غير قصد، والحكمة تمنع صاحبها من الجهل والظلم وهناك تعريف آخر للحِكْمة وهي إصابة الحق فالله حكيم يعلم من هو أحق بالفضل والنعمة وأي القلوب هي أولىٰ بأن تكون مستقرًّا للإيمان والتقوىٰ.

فالكلمة ـ كلمة الحكمة ـ يظهر فيها معنىٰ المنع وهي بذلك تلتقي مع كلمات «الرشد» و«الحجر» و«الصبر» و«العقل» و«التقوىٰ» و«الصدق» وهي كلمات استعملت مشتقاتها في سورة «الحجرات» وكلها تخدم غاية واحدة وتقوي جانب الترك والاتقاء التي جاءت آيات السورة لإبرازه والتحذير منه. وهكذا نرىٰ الوحدة الموضوعية في السورة وكيف تشد آيات السورة بعضها إلىٰ بعض برباط وثيق وترتبط فيما بينها بميثاق غليظ.

وقبل أن نترك هذه الآية الكريمة فلنا وقفة أخيرة مع قوله عز وجل: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات: ٧]. والعنت في اللغة: المشقة والشدة ويأتي أيضًا بمعنىٰ الزنا كما في قوله عز وجل: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٢٥] أي: خشي الوقوع في الزنا ولذلك أباح الله لمن لم تكن لديه قدرة أو استطاعة علىٰ نكاح الحرائر أن ينكح الإماء.

* * *

رحمة للعالمين

ونقول: عنته: إذا سأله عن شيء يريد به اللبس عليه والمشقة، وعنته: إذا طلب زلته، وأعنته: إذا أوقعه في مشقة وشدة وأدخل عليه الأذىٰ وأضر به وألزمه ما يصعب عليه أداؤه.

ولو تُرك المؤمنون لاختيارهم لاختاروا لأنفسهم ما هو أشق وأصعب وإن كان

ظاهره عندهم اليسر والنفع. واختيارهم هذا إنما هو لعدم إحاطتهم بعواقب الأمور كما قال عز وجل: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فالشرع يأمرنا بما هو خير لنا في الدارين والله عز وجل ورسوله ﷺ أرحم بنا من أنفسنا وانظر إلى قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الانبياء: ١٠٧] ولم يقل: (رحمة للمؤمنين) فقط بل للناس كلهم كافرهم ومؤمنهم فقد رفع الله العذاب عن مشركي مكة لا لسواد عيونهم بل لوجوده ﷺ بين أظهرهم: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الانفال: ٣٣].

وسأسوق لك قارئي الكريم بعض الأمثلة التي تبين أن الرسول ﷺ لو أطاعهم لنزل بهم المشقة والعنت. ففي الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال نهانا رسول الله ﷺ عن الوصال في الصيام فقالوا إنك تواصل فقال: «**وأيكم مثلي؟ إني لست كهيئة أحدكم إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني**» فلما أبوا أن ينتهوا عن الوصال، واصل بهم عدة أيام وكانوا في سفر فشق ذلك عليهم، ثم نهاهم عن الوصال فانتهوا.

وأيضًا في حديث الشيخين أن النبي ﷺ قال لعبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ: «**اقرأ القرآن في شهر**» فقال: إني أطيق أكثر من ذلك ـ وكان شابًا ـ إلى أن قال له: «**اقرأه في سبع ليال ولا تزد على ذلك**»، فقال عبد الله لأقومن الليل ولأصومن النهار ما حييت. فقال له: «**إنك لا تستطيع ذلك، فصم وأفطر ونم وقم، وصم من الشهر ثلاثة أيام فإن الحسنة بعشر أمثالها. وذلك مثل صيام الدهر**» فقال إني أطيق أفضل من ذلك، فقال: «**فصم صيام نبي الله داود كان يصوم يومًا ويفطر يومًا**»، فقال: إني أطيق أفضل من ذلك، فقال له: «**لا أفضل من ذلك**».

فكان عبد الله يقول في آخر عمره: يا ليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ وفي

رواية: لأن أكون قبلت ثلاثة الأيام التي قالها أحب إلي من أهلي ومالي وذلك لأنه شق عليه في آخر عمره كثرة القراءة وطول الصيام.

وأخيراً نسوق حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ الذي رواه الشيخان قال: حاصرنا أهل «الطائف» فلم ننل منهم شيئًا (وذلك لمناعة حصونهم وقد أعدوا فيها ما يكفيهم لحصار سنة). فأشار عليهم الرسول ﷺ بالرجوع وذلك بقوله: «**إنا قافلون**»، فثقل عليهم ذلك فقالوا: نرجع غير فاتحين، فلما رأى ذلك منهم قال: «**اغدوا على القتال**» فغدوا فقتل منهم فريق وجرح فريق، فقال لهم: «**إنا قافلون غدًا**» فأعجبهم ذلك فضحك. فقد رماهم أهل «الطائف» بالسهام من أعلى الأسوار فنالوا من المسلمين بينما لم تصل سهام المسلمين إليهم فلما رأوا ذلك تبين لهم صواب القرار بالرجوع فهو إنما قصد الشفقة على أصحابه بالرجوع عن «الطائف» رجاء أن تفتح بعد ذلك بغير مشقة وهو ما حدث بالفعل، فلما رأى حماسهم جد في الأمر فلما أصابتهم الجراح ووقع بهم القتل، رجع إلى ما كان قصده أولاً من الرفق والرحمة بهم ففرحوا بذلك لما رأوا ما لحق بهم من المشقة والعنت والأذى والضرر. فكان رأيه ﷺ أبرك وأرحم وأنفع وأصوب وأحمد عاقبة من رأيهم فوافقوا على الرجوع وفرحوا. فضحك تعجبًا من سرعة تغير رأيهم.

وصدق الله إذ يقول: ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ** ﴾ فوجوده بينهم رحمة تدفع عنهم العذاب والهلكة وبقاؤه فيهم نعمة تدفع عنهم المقت والنقمة ووجوده بين أظهرهم عصمة من الكفر والفتنة وما يراه لهم هو الخير والبركة فلو أطاعهم يوم الحديبية ولم يعقد مع قريش صلحًا لفاتهم خير عظيم ولأصابهم عنت كبير. وقد أدركوا ذلك وشعروا ببركة وجوده بينهم وهذا فضل من الله ونعمة ومنة، وقد عبر عن ذلك عبد الله ابن رواحة ـ رضي الله عنه ـ فقال:

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... إذا انشق معروف من الفجر ساطع

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أن ما قال واقع

وقوله عز وجل: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ إنما هو موجه لخير القرون وخير أمة أخرجت للناس وللصحابة الكرام الأخيار فينبغي علينا السمع والطاعة من باب أولى حتى نكون ممن قال الله فيهم: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤].

* * *

بركة الطاعة

وهكذا رأينا كيف يفعل العصيان بأصحابه من العنت والمشقة فإنه في مقابل ذلك فإن الطاعة تفضي بأهلها إلى الخير والهداية والتوفيق والبركة . وسأسوق لك ما يبين ذلك وسأكتفي بمثلين في هذا الصدد.

ففي «صحيح مسلم» أنه لما نزل قوله عز وجل: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]. شق ذلك على الصحابة فقد أمروا بالصلاة والزكاة والجهاد فأطاعوا ولكن أن يحاسبهم الله على ما تتحدث به أنفسهم أو على ما يجيش في خواطرهم مما لا يمكن دفعه فهذا لا يطيقونه.

فلما أخبروا الرسول ﷺ بذلك، غضب وقال: «**أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا، قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير**». فلما قالوها وأقروا بها نزل التخفيف ورفع الله عنهم ما يشق عليهم وذلك في قوله عز وجل: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

والمثال الأخير كما في حديث أحمد والنسائي أنه لما توفي أبو سلمة ـ رضي الله عنه ـ قال الرسول ﷺ لأم سلمة ـ رضي الله عنها ـ: «**قولي: اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها**» فقالت في نفسها: ومن هو خير من أبي سلمة؟ ،

هاجر الهجرتين إلى الحبشة وإلى المدينة وشهد المشاهد مع رسول الله ﷺ ومات وهو عنه راضٍ ولكنها امتثلت أمر رسول الله ﷺ واسترجعت، فأخلفها الله بمن هو خير من أبي سلمة، وهو رسول الله ﷺ فما أن انقضت عدتها حتى أرسل إليها يخطبها لنفسه وما ذلك إلا ببركة الطاعة والرضا والتسليم التام لما أمر به رسول الله ﷺ مصداقًا لقوله عز وجل: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

* * *

الرشد في القرآن

ونختم كلامنا حول هذه الآية الكريمة بحديث حول فضيلة الرشد وعن المكانة التي تبوأتها بين غيرها من الفضائل الأخرى، يأتي الرشد في القرآن في مقابل الغي والضر والشر كما في قوله عز وجل: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. وقوله أيضًا على لسان الجن: ﴿وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠] وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢١]. فيكون الرشد بذلك من معانيه: النفع والخير والهدى.

ويأتي الرشد أيضًا بمعنى العقل والحكمة وذلك على لسان لوط عليه السلام حينما تجمع قومه أمام بابه يريدون ارتكاب الفاحشة مع أضيافه قال عز وجل: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨] أي: أليس فيكم رجل حكيم يمنعكم من هذا الأمر البغيض؟

والرشد فضل من الله ونعمة كما في قوله عز وجل في هذه السورة: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧، ٨] فالله هو الهادي إلى الرشاد فهو الذي وجه قلوب عباده إلى الطاعة وحال بينهم وبين العصيان وثبتهم على طريق الاستقامة وهداهم إلى سواء الصراط.

والرشد غاية عظيمة تشرئبُّ إليها الأعناق ومقام رفيع ترنو إليه الأبصار وانظر إلى قول موسى عليه السلام وهو يقول للخضر عليه السلام: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦] فلم يقل له موسى: (هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت) وسكت بل قال: (رشداً) أي: علماً يهديني إلى الرشد وأرشد به في حياتي، وانظر إلى تطلع نفوس المؤمنين إلى هذا المقام الرفيع كما في قوله عز وجل: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦] أي: لو كان منهم الاستجابة والإيمان لكان يرجى لهم أن يبلغوا مقام الرشاد.

وانظر إلى دعاء أهل الكهف: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]. فهم لم يطلبوا غير الرحمة والرشد وقد أجابهم الله إلى ما طلبوا كما في قوله عز وجل بعد ذلك: ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦].

وانظر إلى قوله عز وجل: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ [الجن: ١٤] فتوفيق الله لهم لاختيار الإسلام احتاج منهم إلى بذل الجهد وإلى التمحيص والتدقيق والموازنة والترجيح وهو ما تعنيه كلمة (تحروا) في الآية السابقة، فالتحري هو توخي الحق والاجتهاد في طلبه، وهذا المعنى لكلمة «التحري» يلتقي مع معنى كلمة «التبين» الذي أشرنا إليه عند قوله تعالى: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦].

والرشيد: من أسمائه ـ عز وجل ـ الحسنى فهو الذي يهدي عباده إلى طريق الرشاد والسعادة وذلك بإنزال الكتب وإرسال الرسل ليدعوهم إلى الخير ويبعدوهم عن سبيل الغي.

* * *

صفات أهل الرشد

وسن الرشد: هو السن الذي يبلغ فيه المرء مرحلة الوعي والإدراك، والنضج بحيث يمكنه أن يستقل بتصرفاته وأن يصلح أمور معاشه ومعاده دون حاجة إلى توجيه الآخرين أو وصايتهم، فالراشد: هو المستقيم على الحق المتمسك به ومنه «الخلفاء الراشدون».

والراشد أيضًا: الذي يثبت على الحق ولا يعترض على أقدار الله بل يصبر ويرضى بقضاء الله مع اطمئنان القلب وثقة النفس بحكمه سواء أكان موافقًا لهوى النفس أم مخالفًا لها، والرشد هنا يلتقي مع معنى العقل والصبر والذي ورد ذكر لهما فيما سبق من الآيات في سورة «الحجرات».

ومما يدل على تلك العلاقة أو الرابطة بين تلك الألفاظ الكريمة أن الرشد صفة توجد عند ذوي العقول الراجحة، ولذلك فالطفل ليس بمقدوره أن يكون راشدًا وذلك لعدم تمييزه بين النافع والضار ولا يستطيع أن يستقل بمصالحه لأنه لم يصل إلى مرحلة الوعي والنضج ولذلك فهو يمنع من التصرف في ماله حتى يتحقق فيه شرطان وهما: البلوغ والرشد كما في قوله عز وجل في اليتامى: ﴿**وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ**﴾ [النساء: ٦].

فالبلوغ وحده لا يكفي حتى يمكن للبالغ أن يتصرف في ماله بل لا بد أن نرى عليه علامات الرشد ولذلك لم يقل ربنا عز وجل: (وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فادفعوا إليهم أموالهم) وذلك إشارة إلى أن الرشد لا يتحقق بالضرورة عند البلوغ بل لابد من بلوغ مرحلة النضج العقلي حتى يمكنه التمييز بين الأمور والموازنة بين المصالح واتخاذ القرار الصائب.

فالطفل قد يغره المظهر والبريق فيختار ما يضره، أما الرشيد فيعرف حقيقة الأمور

وعواقبها ولا تستخفه زينة الحياة الدنيا بل يظل أمامها كالجبل الشامخ لا يجامل أو يداهن ولكن مما يؤسف له أن هناك من الكبار من تفتنه الزينة ولا يصبر كثيراً أمام إغرائها بل وينجرف في تيارها.

ولذلك لما طلب موسى عليه السلام من الخضر عليه السلام أن يعلمه ما يهديه إلى الرشد أحاله إلى الصبر وذلك لما بين الصبر والرشد من ارتباط وثيق قال عز وجل: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٦٦-٦٨]. فالطفل لا يمكنه أن يكون راشداً كما لا يمكنه أن يكون صابراً فهو مثلاً لا يصبر على الجوع ولذلك لا يكلف بالصيام إلا بعد البلوغ.

فالطفل لا يستطيع أن يؤجل لذة حاضرة ولا يضحي في سبيل الحق أو من أجل الآخرين لأنه لا يفكر إلا في نفسه، وهذا لا يعيبه فهو لا يزال غير مكلف ولكن العيب أن يكبر الطفل وتكبر معه تلك الأنانية لأنه حينئذ يسهل إغواؤه ويمكن توجيهه حيث يريد أعداؤه، أما المؤمن الرشيد فصعب اختراقه أو النيل منه أو احتواؤه أو إثناؤه لأن لديه مناعة ذاتية ورصيداً إيمانيًّا وعنده ضوابط تحكم حياته وحدود ينتهي عندها ولا يتعداها.

وأعداء الإسلام يعرفون ذلك جيداً ولذلك فهم يحاولون قطعه عن مصدر قوته وعزته ليتمكنوا من السيطرة عليه فيثيروا حوله الشبهات والشهوات ويشغلوه بالتوافه عن عظائم الأمور ويبعدوه عن قرآنه الذي يهديه إلى سبيل الرشاد كما قالت الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١، ٢].

فالمؤمن الحق له شخصية قرآنية محددة الملامح، وله سمت خاص ولباس مميز هو نسيج وحده هو شامة بين الناس يختلف عن غيره، فهو يملك ما لا يملكون، هو صاحب الحق والرسالة الهادية والكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

هو وحده الذي يصلح لقيادة البشرية وهو المؤهل والمكلف من قبل ربه لإخراجها من الظلمات إلى النور وأن يأخذ بيدها إلى بر الأمان كما فعل أسلافه من قبل أما الغرب ـ ففاقد الشيء لا يعطيه ـ فقد أفلست نظرياته الأرضية وأخفقت فلسفاته المادية في التخفيف من آلام الناس أو الارتقاء بهم وإسعادهم في الدنيا فضلاً عن الآخرة.

* * *

بشرية فاقدة الرشد!

ولذلك فالمؤمن الرشيد هو معقد الرجاء وهو وحده المرشح لمهمة الإنقاذ بشرط أن يقدر قيمة ما لديه فلا يتطلع إلى ما عند غيره من عرض زائل أو متاع عاجل ولكن مما يؤسف له أن أكثر المسلمين اليوم يزاحمون الغرب لا فيما ينفع بل في التافه والضَّار بعد أن زالت الفروق وأصبح الكل يعب من معين واحد دون فرز أو تمييز بين الغث والسمين، بعد أن نسينا حكمة الآباء: (خذ ما صفا ودع ما كدر).

فأصبحنا نقبل ما جاء من الغرب لا لشيء إلا لأنه جاء من هناك، وأصبحنا نفعل ذلك بدون وعي أو تفكير وهذه هي الخطورة وأصبحنا نقلد غيرنا في لباسه وعاداته وأسلوب حياته ونمط معيشته، فقد أصبحنا مهزومين من الداخل لا نعي دورنا ونسينا مبرر وجودنا وسر قوتنا وأننا خير أمة أخرجت للناس.

وتنكرنا لقيمنا الرفيعة وحتى للغتنا العربية الشريفة التي اختارها الله دون سواها لتكون هي لغة القرآن الكريم وإنك لترى الكثير منا الآن قد أهمل لغته وجهل قدرها وشرفها فتراه يستخدم عند التحية واللقاء كلمة: (Hi) (هاي) الإنجليزية وعند الانصراف أو الوداع يقول: (Bye) (باي) بدلا من تحية الإسلام حتى غدت حياتنا الآن خليطًا من المتناقضات والمفارقات والمضحكات المبكيات.

وقنعنا الآن بالفتات بعد أن كان لنا نصيب الأسد وغزينا في عقر دارنا بعد أن كنا

نصول في الدنيا بأسرها، ورضينا بذيل القافلة بعد أن كانت لنا الصدارة، والكلمة الآمرة، وذلك بعد أن تركنا تعاليم القرآن والسنة المطهرة ونسينا الآخرة وأصبحت الدنيا أكبر همِّنا ومبلغ علمنا، فانشغلنا بالقشور وتركنا معالي الأمور وأصبحنا كالكرة تتقاذفها الأقدام وكسفينة تلعب بها الأمواج وكنبات هش ما له من قرار بعد أن انقطعت صلتنا بوحي السماء.

واقتحمت وسائل الإعلام بيوتنا، والتف حولها الكبار والصغار مبهورين نتلقى ما يلقى إلينا في استسلام، وتمت عملية غسيل العقول والقلوب وتجريدها من الإيمان والتقوى ليعاد تشكيلها من جديد على ضوء نظام العولمة ووفق النمط الغربي المخالف لمبادئ ديننا وقيمنا.

وهكذا اصطبغت النفوس بالصبغة الغربية وامحت الفوارق وتهاوت الأسوار والحواجز، وتلاشت الحدود واختلطت الأمور وانتهكت المحرمات وأصبح الكل يشاهد مباريات الكرة التي تصد عن ذكر الله وحلقات المصارعة التي تذبح الحياء والمسلسلات التافهة ومناظر العري التي تثير الغرائز والشهوات وتغيب العقول وتزرع الرذيلة في النفوس.

وفقد كل من الأدب والعلم مكانته وخرجت المرأة للعمل وهي متبرجة وعلى حساب بيتها وأولادها وأهملت مهمتها التي خلقت من أجلها، وانتشر الفساد وأحجم الناس عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحدث تغيير في المجتمعات المسلمة ليس فقط في المظهر بل في الصميم، فهو تغيير في الوجهة والغاية فبعد أن كنا نتلقى القيم من الكتاب والسنة اختلف الآن مصدر التلقي وأصبح لوسائل الإعلام الهيمنة فأفسدت عقول الناس وقضت على الفضائل والأخلاق.

ولذلك إذا نظرت إلى قوله عز وجل في شأن الرسول ﷺ: ﴿**وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا**﴾ [النور: ٥٤]. وقوله أيضًا: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ**﴾ [آل عمران: ١٠٠] وقوله أيضًا: ﴿ **يَا أَيُّهَا**

الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩]. فإنك تلاحظ في هذه الآيات وفي غيرها من الآيات التي ورد فيها لفظ «الطاعة» أنها جاءت مطلقة ولم تحدد فيها مجالات هذه الطاعة بل تركت عامة وذلك حتى تشمل كل أمور الدنيا والآخرة ولينضوي تحتها كل جوانب الحياة العملية والنظرية بما في ذلك القيم والمبادئ والأفكار والتصورات، فالتصور يعقبه التصرف والفكر يسبق الفعل، والنظر يأتي بعده العمل ولذلك أمرنا الشرع بمخالفة أهل الكتاب في المظهر والمخبر وفي الفكر والسلوك فمن تشبه بقوم فهو منهم والمرء يحشر مع من أحب.

فما أحوجنا الآن إلى الرشد بعد أن فقد الناس صوابهم واتزانهم فهاموا وتاهوا. وما أحوجنا إلى الصبر بعد أن انطلقت الغرائز من عقالها تعربد وتعيث فساداً في الأرض، وما أحوجنا إلى إعادة رسم الحدود بعد ما كثر التجاوز والتعدي وأصبحت الفوضى والتسيب والانفلات هو سمة الحياة وما أحوجنا إلى رجال راشدين يعيدون الأمور إلى نصابها والنفوس إلى رشدها وصوابها.

وليست المشكلة التي تواجهنا اقتصادية أو مادية، فالحرة تجوع ولا تأكل بثديها ولكنها أزمة أخلاقية وقضية التزام وانضباط فلابد للأمة من وقفة صريحة مع النفس للمراجعة والمحاسبة وتصحيح المسار فلا يليق بأمتنا أن تمضي هكذا بلا تعقل أو روية أو بصيرة. فالمؤمن لا يرضى بذوبان الشخصية أو بفقدان الهوية كما أنه لم يخلق ليندفع مع التيار ويتجه معه أينما سار فليس مقامه التقليد أو التبعية بل الإمامة والتوجيه والإرشاد.

فالله خلقنا لنقود البشرية ونحررها من الأطماع والأهواء ولنحذرها من الكفر والفسوق والعصيان وأن نعيد صلتها التي انقطعت بالله بعد أن جن جنونها وطار صوابها وذلك لتذوق حلاوة القرب ولذة المناجاة ولتسعد بعد شقاء.

اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين. اللهم آمين.

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩].

واقعية التشريع الإسلامي

إن أكثر ما يحدث من القتال في المجتمع الإسلامي إنما يكون بسبب الأنباء التي ينقلها أهل الفسق والفجور بغرض إشاعة الخلافات في المجتمع الإسلامي وذلك لزعزعة كيانه وتقويض بنيانه، ولذلك لما حذر الله عز وجل من نبأ الفاسق في قوله: ﴿ إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ [الحجرات: ٦]. بين في هذه الآية ما يترتب على ذلك من الفتنة والنزاع المسلح فطلب من المؤمنين الإصلاح بالوسائل السلمية أولاً فإن لم يستجيبوا للصلح فلا مفر من قتال هؤلاء الذين كرهوا أن يقفوا عند حدود الله وتمادوا في البغي والعدوان.

فذكر حدوث القتال هنا إنما لبيان الغاية التي سوف تنتهي إليها الأمور، فالأنباء الكاذبة والشائعات المغرضة إذا استهين بها ولم يتم وأدها في مهدها فإنها قد تكون سبباً في وقوع القتال بين المسلمين.

ولكن قد يغفل المسلمون عن مراعاة أسباب الوقاية فيقع القتال ولذلك فلابد للشارع الحكيم أن يعقب ذلك بوصف العلاج الناجع لهذه الحالة، وهو ما تكفلت به آيتنا هذه فعظمة التشريع تتمثل في مدى قدرته علي مواجهة مثل هذه التحديات، فهذا هو المقياس والمحك الحقيقي الذي يشهد على مدى صلاحية الشريعة على معالجة مثل هذه الأمور وعلى إصلاح ما يحدث بين المسلمين من نزاع ونشوز.

فالدين الإسلامي وإن كانت أحكامه تسمو بالمسلمين وتحلق بهم في آفاق الكمال والمثاليات إلا إنه في نفس الوقت دين يعترف بالواقع وبالضعف البشري ولذلك فهو يضع الحلول التي تتعامل مع هذا الواقع وتعالج هذا الضعف الذي يعتري الإنسان في سعيه على الأرض وتفتح له أبواب التوبة والإصلاح حتى ينهض من كبوته ويقال من عثرته ويستأنف مسيرته في الحياة بعزيمة صادقة وهمة عالية، فالمسلم لن يتركه شياطين الإنس والجن ينعم بطيب معاش بل إنهم يوسوسون له ليل نهار لصرفه عن دينه ولإشعال الفتنة بينه وبين إخوانه وكذلك لا نغفل دور النفس الأمارة بالسوء وما لها من نوازع وشهوات.

ومن هنا أوجب الإسلام علي أتباعه السعي الدءوب لرأب الصدع وألا يتقاعسوا عن إصلاح ذات البين وذلك حتى لا تراق الدماء المسلمة ويتصدع بنيان المسلمين ويصبحوا شيعًا وطوائف متقاتلين.

* * *

إخوان رغم الاقتتال

فالقاعدة الأساسية في العلاقات بين المسلمين هي رابطة الأخوة المبنية على أساس العقيدة كما قال عز وجل بعد آيتنا هذه: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ [الحجرات: ١٠]. ولكن التشريع الحكيم يفترض وقوع القتال بين المؤمنين ولذلك فهو يدعو إلى إخماد هذه الفتنة قبل أن يتسع نطاقها ويتفاقم خطرها فالأصل بين المسلمين هو المحبة والوئام والقتال هو الاستثناء الذي ينبغي أن يرد إلى الأصل فور وقوعه، فلا بد من التصدي لقتال الفئة الباغية حتى تعود إلى الصواب وفي ذلك نصر لها كما ورد في حديث البخاري: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**»، فقال رجل: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلومًا أفرأيت إذا كان ظالمًا فكيف أنصره قال: «**تحجزه عن الظلم** (أو تمنعه منه) **فإن ذلك نصره**».

ولعلك تلاحظ أن الله عز وجل قد أثبت للطائفتين المتقاتلتين الأخوة الإيمانية فقال عز وجل: ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ [الحجرات: ٩]. فهو لم يسقط عنهم وصف الإيمان بالبغي أو القتال وحينما سئل علي رضي الله عنه عن الخوارج الذين خرجوا على سلطانه وقاتلوه فقال: «هم إخواننا بغوا علينا».

ولذلك فالغرض من قتالهم إذن هو ليس القضاء عليهم أو استئصال شأفتهم أو الانتقام منهم وإنما هو ردهم إلى الصف وضمهم تحت لواء الأخوة الإسلامية. فلا ينبغي إذن معاملة أهل البغي معاملة الأعداء بل نقاتلهم لكف بأسهم ودرء الفتنة وإلا فإنهم ليسوا كالكافرين الذين كفروا بالله عز وجل وأنكروا نبوة رسوله ﷺ ولو كانوا مثلهم لما حلت مناكحتهم ولا ذبائحهم ولا مواريثهم.

ولذلك قال الفقهاء بأنه لا يجهز على جريحهم ولا يقتل أسيرهم ولا تسبى نساؤهم ولا يطلب هاربهم ولا يقسم فيؤهم أو مغانمهم كما سنرى بعد قليل عند الكلام عن أحكام البغي والبغاة كما استدل البخاري وغيره بهذه الآية على أنه لا يخرج المسلم عن الإيمان بارتكاب المعاصي وإن عظمت وذلك خلافًا لما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة.

* * *

المبادرة لحقن الدماء

ولعلك تلاحظ أيضًا أن الأمر بالإصلاح وهو قوله عز وجل: ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ قد تكرر مرتين في آيتنا هذه ومرة ثالثة في الآية التي بعدها مما يدل على أهمية الإصلاح فهو واجب على كل مسلم بل يبلغ حد الفريضة وتركه يبلغ حد الكبيرة، فيجب أن نتحمل جميعًا مسئولية وقف القتال حفاظًا على الدم المسلم أن يراق في غير موضعه أو بلا داع، فلا ينبغي أن يتَّسم موقف المسلمين إزاء هذا الخطر الداهم بالسلبية أو اللامبالاة وعدم الاكتراث كأن الأمر لا يعنيهم ولو اتخذ المسلمون